

الفصل التاسع والعشرون

الشعب الانجليزي

١٧٥٦ - ٨٩

١ - أساليب الحياة الانجليزية

حسبنا هذا القدر عن الحكومة ، فلننظر الآن في أحوال الشعب .
أولا تأمل أشكال بنيتهم . فما من شك في أن رينولدز تسامى بها ، فأظهرنا
غالباً على المحظوظين حملة ألقاب النبالة ، وأضفى على أجسادهم البدنية
بهاء من أرواب الشرف وشاراته . ولكن استمع إلى جوته يصف الانجليز
الذين شاهدتهم في فامار ! « يا لهم من قوم ملاح الوجوه رائعي السميت ! »
- وأقلقه الخوف من أن يصرف هؤلاء البريطانيون الشبان ، المملوءون
ثقة في أنفسهم ، الذين تفيض عنهم السلطة عفواً ، الفتيات الألمان عن الافتنان
بالرجال الألمان (١) . وقد احتفظ كثيرون من هؤلاء الشبان بقوامهم حتى
تقدم بهم العمر ، ولكن الكثيرين انتفخت كروشهم وخذودهم حين خلفوا
ملاعب مدارسهم إلى لذات المائدة ، وتفتحوها كأنهم الورود الحمراء القمانية ،
وكافحوا في هدأة الليل ذلك النقرس الذي غدوه أثناء النهار المرح . وقد
ضاع شيء من الحشونة الالزابيثية في القصف الذي رافق عودة الملكية ،
أما النساء الانجليزيات فقد أصبحن أجمل مما كن في أي وقت مضى ،
على لوحات الرسامين على الأقل : قسماً دقيقة ، وشعر تجمله الأزهار
والأشرطة ، وأسرار غامضة يغلفها الحرير ، وقصائد من الشعر كأيها
رشاقة وجلال .

وكانت فوارق الزي الطبقية في طريقها إلى الزوال بفضل ما جند من
وفرة في الثياب القطنية التي تنتجها المصانع المتكاثرة ، ولكنها ظلت على

حالتها في المناسبات الرسمية . وقد ركب اللورد ديروننتووتر إلى موضع إعدامه في سترة قرمزية وصدريّة هوشاة بالذهب^(٢) . أما البوارياك فكانت دولتها تدول ، ثم اختفت حين فرضت الثاني الضرائب على المسحوق الذي يزيل رائحتها الكريهة ، ولكنها عمرت على رعوس الأطباء ، والقضاة ، والمحامين ، وعلى رأس صموئيل جونسن ؛ وقنع معظم الرجال الآن بشعرهم الطبيعي يابسونه على أقفيتهم في ضفيره معقودة بشريط . وحوالي ١٧٨٥ أطال بعض الرجال سراويلهم من الركبة إلى ريلة الساق ؛ وفي ١٧٩٣ تركوها تصل إلى الكاحل تقليداً للهان - كيلاوط الفرنسيين الظافرين ، وهكذا ولد الرجل المصري . أما النساء فظللن يغطين صدورهن بالمخرمات حتى يشرفن على الاختناق ، ولكن التنورة المطبوقة أخذت تفقد ذيوعتها وعرضها ، وبدأت الفسائين تتخذ تلك الخطوط الانسيابية التي استهوتنا أيام الشباب .

أما النظافة فلم تكن من الإيمان إلا فيما ندر ، لأن الماء كان ترفاً . فالأهوار جميلة ولكنها عادة ملوثة ، وكان التيمز أشبه بالمصرف^(٣) . وكان الماء يفرغ في مواسير بيوت لندن ثلاث مرات في الأسبوع نظير ثلاثة شلنات للكوارتر^(٤) ، وكان لبعض المنازل مراحيض آلية ، وقليل منها كان له حمامات بماء جار . وكان معظم المراحيض (التي درج القوم على تسمية الواحد منها أريحا) خارج الأسوار ، مبنية فوق حفر مكشوفة ترسل نرها خلال التربة إلى آبار يأتي منها قدر كبير من ماء الشرب^(٥) . على أن العناية بالصحة العامة أخذت تتحسن ، والمستشفيات تكثر ، وهبطت وفيات الأطفال من أربعة وسبعين في كل مائة مولود عام ١٧٤٩ إلى واحد وأربعين عام ١٨٠٩^(٦) .

ولم يكن أحد من الناس يشرب الماء إذا استطاع الحصول على شراب أكثر أمناً . وكانت الجعة تعد طعاماً ، لا غنى عنه لأي عمل شاق ، أما النبيذ فدواء مفضل ، وأما الوسكى فموقد متنقل ، وأما السكر فخطيئة عرضية ، ان لم تكن جزءاً ضرورياً لمسيرة المجتمع . قال الدكتور جونسن : « أذكر الأيام التي كان فيها جميع الأشخاص المهذبين من أهل لتشفيلد

يسكرون كل ليلة ، ولم يسؤ رأى الناس فيهم لسكرهم هذا» (٧) .
وكان بت الثانى يحضر إلى مجلس العموم مخموراً ، واللورد كورنواليس
يذهب إلى الأوبراء ثملاً (٨) . وكان بعض سائقى عربات الأجرة يزيدون
دخولهم بطواف الشوارع فى جوف الليل والتقاط السادة «المبسوطين»
وتوصيلهم لبيوتهم . ثم تناقص السكر بتقدم القرن ، واضطلع الشاى
ببعض مهمة تدفئة الأوصال وإطلاق الألسنة . وزادت واردات الشاى من
مائة رطل عام ١٦٦٨ إلى أربعة عشر مليون رطل عام ١٧٨٦ (٩) . وكانت
مشارب القهوة الآن تقدم الشاى أكثر من القهوة .

أما وجبات الطعام فكانت شهية ، دامية ، هائلة الحجم . وكان الغداء
يقدم حوالى الساعة الرابعة عصرأ لعاية القوم ، ثم أحر شيئاً فشيئاً إلى السادسة
باقتراب القرن من نهايته . وقد يهدىء رجل مستعجل جوعه بشطيرة
(ساندوتش) . وقد اتخذت هذه البدعة اسمها من إيرل ساندوتش الرابع
الذى ألف أن يتناول شريحتين من الخبز بينهما لحم متحاشياً قطع القمار بالغداء .
أما الحضرات فتؤكل على مضض . وقد قال جونسن لبوزويل فى ١٧٧٣
« ان التدخين انتهت موضته » ، ولكن القوم كانوا يتناولون التبغ نشوقاً .
وشاع استعمال الأفيون مسكناً أو علاجاً .

وكان فى وسع الرجل الانجليزى وهو على المائدة أن يشرب حتى
ينطلق لسانه ، وعندها قد يضارع الحديث نظيره فى صالونات باريس ظرفاً
ويزه جوهرأ . وذات يوم (٩ ابريل ١٧٧٨) اجتمع فيه جونسن ، وجبون ،
وبوزويل ، وآلن رمزى ، وغيرهم من الأصدقاء ، فى بيت السر جوشوا
رينولدز ، قال الدكتور (جونسن) ملاحظاً « أشك فى إمكان جمع شمل
لفيف كهذا الذى يجلس حول هذه المائدة فى باريس فى أقل من نصف
سنة » (١٠) . وكانت المحافل الارستقراطية تؤثر الحديث الظريف على حديث
العلماء ، وتفضل سلوين على جونسن . وكان جورج سلوين أوسكار وايبند
القرن الثامن عشر . وقد طرد من أكسفورد (١٧٤٥) لأنه « زعم فى زندقته
أنه يتقمص شخصية المخلص المبارك ، ولأنه سخر من سر التناول المقدس » (١١) ،

ولكن هذا لم يحل بينه وبين الحصول على وظائف شرفية مجزية في الإدارة الحكومية ، أو الجاوس والنوم في مجلس العموم من ١٧٤٧ إلى ١٧٨٠ . وكان له العديد من الأصدقاء ، ولكنه لم يتزوج قط . وكان ولوعاً بمشاهدة تنفيذ أحكام الإعدام ، ولكنه تغيب عن مشهد إعدام رجل كان سميًا لتشارلز جيمس فوكس ، عدوه السياسي الذي كان يتطلع إلى رؤيته يتأرجح على حبل المشنقة - قال « انى حريص على ألا أحضر « البروفات » أبداً » (١٢) . وقد ظل هو وهوارس ولبول صديقين حميمين طوال ثلاثة وستين عاماً دون أن تكدر صفو صداقتهما سخابة أو امرأة .

أما الذين لم يستمتعوا بمناظر الإعدام فكان في وسعهم أن يتخيرا وما طاب لهم من بين عشرات الملاهي الأخرى ، من لعبة الورق المسماه « هويست » أو مشاهدة قتال الطيور ، إلى سباقات الحفل أو النزال بين خصوم للظفر بجائزة . وكان الكريكيت الآن اللعبة القومية . وكان الفقراء يبددون أجورهم في الحانات ، والأغنياء يقامرون بثروتهم في الأندية أو البيوت الخاصة . ويقول ولبول عن جلسة قمار في بيت الالدي هرتفورد « إننى خسرت ستة وخمسين جنياً في لحظات » (١٣) . وقد أطلق جيمس جلراى ، في رسومه الكاريكاتورية الشهيرة على أمثال هؤلاء المضيفات « بنات فرعون » (١٤) * وكان تقبل الحسائر في هدوء أول الصفات المطلوبة في الرجل الانجليزى المهذب ، حتى ولو انتهى به الأمر إلى اطلاق الرصاص على رأسه .

ولقد كان ذلك العالم عالم الرجل ، قانونياً واجتماعياً وأخلاقياً . فكان الرجال يستمتعون بمعظم لذاتهم الاجتماعية مع غيرهم من الرجال ، ولم ينظم ناد لعضوية الجنسين حتى عام ١٧٧٠ . وكان الرجال يشبطون الثقافة والفكر في النساء ، ثم يشكون من عجز النساء عن الحديث المثقف . ومع ذلك وفقت بعض النساء في تثقيف عقولهن . فتعلمت السيدة اليزابث كارتر التكلم باللاتينية والفرنسية والإيطالية والألمانية ، ودرست العبرية والبرتغالية

* هناك تورية في كلمة Faro التي قد تعنى فرعون Pharaoh أو لعبة من ألعاب الورق (الفوعونية) : المترجم .

والعربية ، وترجمت ابكتيتس بدراية باليونانية ظفرت بثناء جونسن . وقد احتجت على عزوف الرجال عن مناقشة الأفكار مع النساء ، وكانت إحدى السيدات اللاتي جعلن « ذوات الجوارب الزرقاء » (أى النساء المثقفات) حديث المثقفين من أهل لندن .

وقد أطلق هذا اللقب أول مرة على الاجتماعات المخلطة في بيت السيدة اليزابث فزى بشارع هرتفورد بحى مايفير . في هذه اللقاءات المسائية حضر لعب الورق وشجع النقاش في الأدب . والتقت السيدة فزى ذات يوم ببنيامين ستيلنجفليت ، الذى اشتهر فترة قصيرة بأنه شاعر وعالم نباتى وفيلاسوف ، فدعته إلى حفل استقبالها القادم ، فاعتذر بأنه لا يملك ملابس تصلح لأن يحضر بها حفلة . وكان يرتدى جورباً أزرق . فقالت له « لاتهم باللباس ، تعال لابسا جواربك الزرقاء » . وذهب . ويروى بوزويل « ان حديثه كان غاية في الروعة حتى . . . ألف القوم أن يقولوا . . . لا نفعل شيئاً بدون الجوارب الزرقاء » ، وهكذا ثبت اللقب شيئاً فشيئاً^(١٥) ، وأصبح يطلق على جماعة السيدة فزى « جماعة الجوارب الزرقاء » Bas Bleu Society . وكان يختلف إليهم جاريلك وولبول ، وذات مساء روع جونسن الحاضرين جميعاً بحديث من أحاديثه الفخمة الطنانة .

أما « ملكة الزرق » كما لقبها جونسن فهي إليزابث روبنسن مونتاجيو . وكانت زوجة إدورد مونتاجيو ، حفيد إيرل ساندوتش الأول وقريب إدورد ورتلى مونتاجيو ، زوج السيدة ماري الهوائية التي نوهنا بها في صفحات سالفة^(١٦) . وكانت اليزابث مفكرة ، ودارسة ، ومؤلفة ، وقد دافع مقالها « كتابات شيكسبير وعبقريته » (١٧٦٩) في سنخ عن الشاعر القومي ضد نقد فولتير القاسى . وكانت غنية في وسعها أن تضيف زوارها على مستوى رفيع . وقد جعلت من الحجرة الصينية التي في بيتها الواقع في ميدان باركلي الملتقى المحب لمفكرى لندن وحسانها ، فأم الندوة رينولدز وجونسن وبيرك وجولدسمث وجاريلك وهوراس ولبول وفانى بيرنى وهانا مور ، وهناك التقى الفنون بالمحامين ، والأساقفة بالفلاسفة ، والشعراء بالسفراء . وكان « الطاهى البارح » الذى استخدمته السيدة مونتاجيو يطهو لهم من الطعام

ما يشرح صدورهم جميعاً ، ولكن لم يكن يقدم للجماعة مسكر ، وكان السكر محظوراً . وكانت تلعب دور الراقية لبراعم المؤلفين ، وتثر هباتها يمناً ويسرة . وفتح غيرها من سيدات لندن - كالسيدة ثريل ، والسيدة بوسكاوين ، والسيدة مونكتون - بيوتهن للموهبة والجمال . وغدا المجتمع اللندني مزدوج الجنس ، وبدأ ينافس باريس في شهرة صالوناته وعبقريتها .

٢ - الاخلاق الانجليزية

يقول آدم سميث «في كل مجتمع رسوخ فيه التمييز بين مراتب الناس يوماً رسوخاً تاماً ، كان هناك على الدوام مخططان أو نظامان للأخلاق ساريان في وقت معاً ، يمكن أن يسمى الواحد الصارم أو المتزمت ، والآخر المتحرر ، أو ان شئت المتحالي . أما الأول فتعجب به وتبجله عادة الشعب بوجه عام ، وأما الثاني . . . فيبقى تقديراً واعتناقاً أكثر ممن نسميهم المجتمع العصري» (١٧) وقد وصف جون وسلي ، الذي كان ينتمي للطبقة المتزمتة ، الأخلاق الانجليزية في ١٧٥٧ بأنها خليط من التهريب ، والإيمان الكاذبة ، والفساد السياسي ، والسكر ، والقمار ، والغش في المعاملات ، والخداع والتحايل في المحاكم ، والخنوع في رجال الدين ، ومحبة العالم بين الكويكرز ، واختلاس أموال البر سرراً (١٨) . وتلك شنشنة نعرفها منذ القدم .

وكان التمييز بين الجنسين يومها كما هو اليوم غير كامل إطلاقاً . فحاول بعض النساء أن يكن رجالاً ، وكان ينجحن في هذه المحاولة ، ونسمع عن حالات تنكر فيها النسوة في هيئة الرجال واستغفطن بهذا المظهر الخداع حتى مماثن ، والتحق بعضهم بالجيش أو البحرية بوصفهم رجالاً ، وكن يسكرون ويدخنن ويشتمن كالرجال ، ويقاطن في الحمارك ، ويمتسنان الجاد بشجاعة الرجال (١٩) . وحوالي ١٧٧٢ انتشر الغنادير Macaronis في شوارع لندن . وكانوا شباناً أرسلوا شعورهم في نخصلات معقوفة طويلة ، يلبسون ثياباً غالية ذات ألوان لافتة للنظر و «يعاشرون البغايا بغير حرارة» ، وقد وصفهم ساوين بأنهم «ضرب من الحيوان لا هو بالذكر ولا بالأنثى ، ولكنه جنس بين بين» (٢٠) وكان لواطه مؤخيره ، رغم أن الأفعال الجنسية الشاذة كان عقابها الإعدام ان اكتشنت وثبت ارتكابها .

وقد زكا المعيار الأخلاقي المزدوج . فكانت ميثاق المواخير ترفه عن الرجال المنتفخين ، ولكن هؤلاء الرجال كانوا يسمون انعدام العفة في المرأة جريمة لا يكفر عنها غير الموت . فانظر إلى جولدميث الرقيق يقول ؛ « إذا قدنت امرأة جميلة إلى اتيان الحياقة ثم اكتشفت بعد الأوان أن الرجال نحوافون - فأى تميمية تستطيع أن تهديء اكتسابها ، وأى حيلة يمكن أن تمحو ذنبها ؟ لا حيلة تجدى لإخفاء ذنبها ، ولمواراة عارها عن أعين الناظرين ، ولإتاحة الندم لحبيبها وإشعاره بالوجيعة - لا حيلة إلا الموت» (٢١).

وقد نصحووا بالزواج الباكر واقياً من هذه الكوارث وأجاز القانون زواج البنات في الثانية عشرة ، والصبيان في الرابعة عشرة . وتزوج معظم نساء الطبقات المتعلمة صغاراً وأجلن انحرافاتهن ، ولكن المعيار المزدوج كان يكبح جماحهن . استمع إلى جونسن يقول في الزنا (١٧٦٨) : « ان اختلاط الأنساب لب هذه الجريمة ، فالمرأة التي تحت بعهود الزواج أشد اجراماً من الرجل الحانث بعهوده . بحقاً ان الرجل مجرم أمام الله ، ولكنه لا يؤذى امرأته أذى بالغاً جداً ان لم يهنا ، أى إذا تسلسل مثلاً إلى مخدعها لفرط في شهوته . على الزوجة يا سيدى ألا يسوئها هذا كثيراً . وان أستقبل في بيتى ابنة لى هربت من زوجها لهذا السبب . وينبغى للزوجة أن تحاول اصلاح حال زوجها ببذل المزيد من الاهتمام بإرضائه ، سيدى ، ان الرجل ان يترك زوجته حتى في حالة واحدة من مائة حالة ، ويذهب إلى مومس ، ما لم تهمل زوجته في امتاعه» (٢٢) .

وكانت الفكرة المسلم بأنها شيء عادى تماماً في حلقة بوزويل وأصحابه هي أن يختلف الرجال إلى المومسات بين الحين والحين . وكان الزنا في الطبقة الارستقراطية - وحتى في الأسرة المالكة - واسع الانتشار . فكان الدوق

(م ٨ - قصة الحضارة ، ج ٤٢)

جرافتن يعاشر نانسي بارسونز علانية وهو كبير الوزراء ، ويصحبها إلى الأوبرا على مرأى من الملكة (٢٣) . أما الطلاق فنادر ، ولا سبيل للحصول عليه إلا بقانون برلماني ، ولما كان هذا يكافئ « عدة آلاف من البنجات » فإنه كان ترف الأغنياء ، ولم يسجل في الفترة من ١٦٧٠ إلى ١٨٠٠ غير ١٣٢ إذن بالطلاق (٢٤) . وكان الظن بوجه عام أن أخلاق العامة خير من أخلاق أشرافهم ، ولكن جونسن ذهب إلى العكس (١٧٧٨) : « لا يقل الزنا والحيانة الزوجية بين الزراع عنهما بين النبلاء » و « على قدر ما لاحظت ، كلما علا مقام السيدات وازددن ثراء ، كن أفضل تهديباً وأكثر عفة » (٢٥) . وقد صور أدب ذلك العصر الفلاح ، كما نرى في فيالدينج وبيرنز ، يشارك كل نهاية أسبوع تقريباً في الحفلات الصاخبة ويسرف في الشراب ، وينفق نصف أجره في الحانات ، وبعضه على المومسات . لقد كانت كل طبقة تأثم وفق طرائقها ومواردها .

وكان الفقراء يقتتلون بقبضات أيديهم وبالنبايت ، والأغنياء بالطبنجات والسيوف . وكانت المبارزة مسألة تتصل بالشرف في طبقة النبلاء . فقد بارز فوكس آدم ، وشلبيرن فولرتن ، وبت الثاني تيرني ؛ وكان عسيراً على المرء أن يجوز حياة النبالة دون جرح واحد على الأقل . وتشهد القصص الكثيرة على هدوء السادة البريطانيين ورباطة جأشهم في هذه اللقاءات . وقد أكد اللورد شلبيرن لشاهديه اللذين ساورهما القلق حين أصابه جرح في أصل فخذه « لست أظن أن الليدى شلبيرن سيزيدها هذا الجرح سوءاً » (٢٦) .

وشر من تحلل الأخلاق الجنسية ما شاع من ضراوة الاستغلال الصناعي : ذلك الاستهلاك القاسي للحياة الإنسانية في سبيل التكالب على الأرباح ؛ واستخدام الأطفال في سن السادسة في المصانع أو تطهير المداخن ؛ وافتقار الآلاف من الرجال والنساء فقراً مدقعاً يكرههم على بيع أنفسهم إلى عبودية لا أجر لها نظير الرحلة إلى أمريكا ؛ والحماية الحكومية لنجارة الرقيق باعتبارها مصدراً غالباً من مصادر ثروة إنجلترا .

وكان التجار يبحرون إلى أفريقيا من لفربول وبرستل ولندن - كما

يبحر غيرهم من هولنده وفرنسا - فيشترون الزنوج ويقتنصونهم ، ويشحنونهم إلى جزر الهند الغربية ، ويبيعونهم هناك ، ثم يعودون إلى أوروبا بشحنات رابحة من السكر أو التبغ أو الروم . وبحلول عام ١٧٧٦ كان التجار الانجليز قد حملوا إلى أمريكا ثلاثة ملايين من العبيد ، يضاف إليهم ٢٥٠,٠٠٠ ماتوا في الرحلة وقذف بهم في البحر . وقد منحت الحكومة إعانة سنوية قدرها ١٠,٠٠٠ جنيه للشركة الأفريقية ونخايفتها « الشركة المنظمة » لدعم قلاعها ومحطاتها في أفريقيا ، بحجة أنهما « أنفع ما كونه تجارنا من شركات هذه الجزيرة » (٢٧) . وحظر جورج الثالث (١٧٧٠) على حاكم فرجينيا « أن يوافق على أى قانون يحرم أو يعوق استيراد شحنات العبيد على أى وجه » (٢٨) . وفي ١٧٧١ كان في إنجلترا نحو أربعة عشر ألف زنجي جابهم سادتهم المستعمرون أو أبقوا منهم ، وقد استخدم بعضهم خدماً في البيوت دون أن يكون لهم حق في تقاضى الأجور (٢٩) ، وبيع البعض في مزادات علنية ، كما حدث في لفربول عام ١٧٦٦ (٣٠) . على أن محكمة انجليزية قضت في ١٧٧٢ بأن العبد يصبح حراً تلقائياً في اللحظة التي يطأ فيها أرض إنجلترا (٣١) .

ثم تنبه ضمير إنجلترا ببطء إلى التناقض بين هذه التجارة وأبسط أوامر الدين أو الأخلاق . فندد بها ألمع العقول في بريطانيا : جورج فوكس ، ودانيال ديفو ، وجيمس طومسن ، ورتشرد ستيل ، والكسندر بوب ، ووليم بالي ، وجون وسلي ، ووليم كوبر ، وفرنسيس هتشسن ، ووليم روبرتسن ، وآدم سميث ، وجوسيا ودجوود ، وهوراس ولبول ، وصموئيل جونسن ، وادهوند بيرك ، وتشارلز جيمس فوكس . أما أول معارضة منظمة للرق فقد قامت بها طائفة الكويكوز في إنجلترا وأمريكا ؛ ففي ١٧٦١ حرموا من عضويتهم كل مشتغل بهذه التجارة ، وفي ١٧٨٣ كونوا جمعية « لإغاثة وتحرير العبيد الزنوج في جزر الهند الغربية ، ولتنشيط تجارة الرقيق على ساحل أفريقيا » (٣٢) . وفي ١٧٨٣ ألف جرانفل شارب لجنة للتعجيل بإلغاء تجارة الرقيق ؛ وفي ١٧٨٩ بدأ وليم ولبرفورس حملته الطويلة في مجلس العموم لإنهاء التجارة الانجليزية في العبيد . وقد أقنع

التجار المجلس المرة بعد المرة بتأجيل مشروعه ، ولم يصدر المجلس القانون الذي حرم على أى سفينة أن تحمل عبيداً من أى ثغر في الممتلكات البريطانية بعد أول مايو ١٨٠٧ ، أو لأى مستعمرة بريطانية بعد أول مارس ١٨٠٨ ، إلا عام ١٨٠٧ .

أما في ميدان الأخلاق السياسية فإن إنجلترا كانت الآن في الحضيض . فقد زكا نظام الدوائر الانتخابية العفنة ، وعرض الدهاقنة من ولاية الهند السابقين لها أثماناً باهظة . وقد أسف فرانكان أسفاً شديداً على نشوب الحرب الأمريكية لسبب غريب : « لم لم يتركوني أمضى في طريقي ؟ لو أنهم (أى المستعمرين) أعطوني ربع المال الذي أنفقوه على الحرب ، لحصلنا على استقلالنا دون أن نريق قطرة دم . كنت أشتري البرلمان كله ، وحكومة بريطانيا بأسرها » (٣٤) . واستشري الفساد في الكنيسة ، والجامعات ، والقضاء ، والوظائف المدنية ، والجيش والبحرية ، ومجالس الملك . وكان النظام العسكري أشد صرامة منه في أى بلد أوروبى آخر (٣٥) ربما باستثناء بروسيا ، فإذا سرح المقاتلون لم يتخذ أى اجراء لتيسير انتقالهم إلى حياة نافعة ملتزمة بالقانون .

أما الأخلاق الاجتماعية فقد تأرجحت بين الطيبة الأصيلة في الفرد الانجليزى ووحشية الغوغاء المستهتره . وقد وقعت في الفترة من ١٧٦٥ إلى ١٧٨٠ تسع فتن كبرى ، وكلها تقريباً في لندن ، وسرى مثلاً منها بعد قليل . وكانت الحشود تهول للفرجة على مشهد الشنق كأنهم في يوم عيد ، وقد يرشون الجلاذ ليعنف في جلد سجين (٣٦) . وكان قانون العقوبات أشد القوانين صرامة في أوربا . أما اللغة في جميع الطبقات تقريباً فكانت تنحو إلى العنف والسوقية . واشتبكت الصحف في معارك رهيبه من القدح والافتراء . وكان الكل تقريباً يقامرون ، ولو في اليانصيب القومى ، والكل تقريباً يشربون حتى يثملوا .

واتحدت عيوب الخلق الانجليزى مع صفته الأساسية - وهى النشاط الشديد والعافية العارمة . وقد أنفقها الفلاح وعامل المصنع في العمل الشاق ،

وأبدتها الأمة في كل أزمة إلا واحدة . فمن هذه العافية انبثقت الشهية المفرطة ، وروح المرح ، واللجوء إلى المومسات والمشاجرات في الحانات والمبارزات في الميادين ، وعنف المناقشات البرلمانية ، والقدرة على المعاناة في صمت ، ومفاخرة كل انجليزى بأنه بيته قلعتة التي لايسمح باقتحامها إلا بمقتضى القانون . وحين هزمت انجلترا في هذا العصر ، كان الذي هزمها هم الانجليز الذين اذرعوا في أمريكا ذلك الولع الانجليزى بالحرية . وقد لاحظت مدام دو فان وضوح الفروق بين الأفراد في الانجليز الذين التفت بهم ، والذين لم تبصر معظمهم قط . قالت « كاهم نسيج وحده ، ولا تجد منهم اثنين على شاكلة واحدة . أما نحن (الفرنسيين) فعلى النقيض منهم تماماً ، فإذا رأيت فرداً من حاشيتنا فكأنك رأيت الكل » (٣٧) . وقد وافق على رأيها هوراس ولبول فقال « من المؤكد أنه ما من بلد آخر ينجب كما تنجب انجلترا هذا العدد الكبير من الشخصيات المنفردة المتميزة » (٣٨) ثم انظر إلى الرجال الذين رسمهم رينولدز : فهم لاينفقون إلا في الاعزاز بوطنهم وطبقتهم ، وفي تورد وجورهم ، وفي تصديقهم الجسور للعالم . لقد كانت سلالتهم سلالة قوية حقاً .

٣ - الإيمان والشك

ظلت الجماهير الانجليزية وفيه لعقيدتها المسيحية في مختلف صورها . وكان أوسع الكتب قراءة بعد الكتاب المقدس « الأعياد والأصوام » تصنيف نلسن . وهو دليل للسنة الكنسية (٣٩) . وقد طبع كتاب جونسن « صلوات وتأملات » الذي نشر بعد وفاته أربع طبعات في أربع سنين . وكان الدين في الطبقات العليا يحظى بالاحترام بوصفه وظيفة اجتماعية ، ومعواناً على الأنتلاق ، وذراعاً للحكومة ، ولكنه كان قد فقد تصديق الفرد له في دخيلة نفسه وضاع كل سلطان له على السياسة . وكان الملك يعين الأساقفة ، أما القساوسة فيعينهم كبار ملاك الأرض ويجرون عليهم أرزاقهم . وكان هجوم الربوبيين على الدين قد هدأت فورته إلى حد مكن برك من أن يتساءل في ١٧٩٠ « من ممن ولدوا في السنين الأربعين الأخيرة

قرأ كلمة واحدة مما كتبه كولنز ، وتولاند ، وتندال ، وتشب ، ومورجن ، إلى آخر تلك السلالة التي سمت نفسها أحرار الفكر؟» (٤١) .

ولكن إذا لم يكن أحد قد انبرى للرد عليه فرمما لأن هؤلاء المتمردين كانوا قد كسبوا المعركة ، وأن المتعملين لم يبالوا الموضوعات القديمة لكونها قد بت فيها وماتت . وقد وصف بوزويل جيايه في ١٧٦٥ (ناسياً عامة الشعب) بأنه « عصر اشتد ولع الناس فيه بالشكوكية حتى لكأنهم يفاخرون بتضييق دائرة إيمانهم ما استطاعوا » (٤١) . وقد رأينا سلوين يسخر من الدين في أكسفورد ، وولكس في مدمنام آبي . وقد روت الليدى هستر ستانوب أن بت الإبن « لم يذهب إلى الكنيسة قط في حياته » (٤٢) . ولن يكن فرضاً على الواعظ أن يكون مؤمناً بما يعظ . كتب بوزويل في ١٧٦٣ يقول « بين رجال الدين كثيرون من غير المؤمنين الذين إذ رأوا الدين مجرد نظام سياسى فهم ينظرون إلى الوظيفة الكهنوتية ذات الدخل نظرهم إلى أى وظيفة مدنية ، ويسهمون بجهودهم للإبقاء على هذا الوهم المفيد » (٤٣) . يقول جبون « ان اقرارات العقيدة القومية ، ومواد الإيمان ، يوقعها رجال الدين العصريون بزفرة أو بابتسامة » (٤٤) .

وقد أتاحت الأندية الخاصة تخفيفاً من الامتثال العلنى لعقيدة الكنيسة . فانضم كثيرون من الطبقة الارستقراطية لمحفل أو آخر من محافل الماسون الأحرار . وقد أدانت هذه المحافل الإلحاد لسخفه ، واشترطت في أعضائها إيماناً بالله ، ولكنها غرست فيهم التسامح في الخلافات القائمة على غير ذلك من عقائد الدين (٤٥) . وفي جمعية برمنجهام القمرية كان رجال الصناعة من أمثال ماثيوبولتن وجيمس وات وجوسيا ودجوود يستمعون دون فزع إلى هرطقات جوزف بريستلى وإرازمس داروين (٤٦) . على أن ضجة الربوبية كانت قد ولت ، وقبل جميع أحرار الفكر تقريباً هدنة لايتدخاون بمقتضاها في الدعوة للإيمان ما دامت الكنيسة تغضى شيئاً ما عن الإثم . وتجنبت الطبقات العليا الإنجليزية - بما فطرت عليه من حس بالنظام والاعتدال - ذلك التطرف المستهتر الذى اندفعت إليه حركة التنوير الفرنسية ، فقد أدركت

ما بين الدين والحكم من وحدة حميمة ، وأوتيت من القصد ما عصمها من إحلال نظام بوليسى لا آخر له محل أخلاقية غيبية :

وإذ كان الأساقفة الانجليكان الآن خداماً للدولة كما كان الكرادلة الكاثوليك ، فقد رأوا أن لهم الحق في قسط من متع الدنيا . وقد هجا كوبر في أبيات لاذعة (٤٧) رجال الدين الذين كانوا يتهافتون تهافت رجال السياسة على الوظائف الدينية الأكثر مغنماً أو الملحقة بوظائفهم ؛ ولكن غير هؤلاء كثيرون عاشوا حياة العكوف الهادىء على واجباتهم ، وعديدون كانوا المدافعين الأكفاء المتبحرين عن الإيمان . وقد كشف كتاب بالى « مبادئ الفلسفة الأخلاقية والسياسية » (١٧٨٥) عن روح سميحة ذات أفق واسع وتسامح عقيدى ، وعرض كتابه « البراهين على المسيحية » (١٧٩٤) عرضاً مقنعاً البرهان القائم على القصد فى الكون . وقد لقي الترحيب فى صفوف الأكليروس رجال ذومبول للتحرر الفكرى ما داموا يعظون بجوهر الدين ويكونون القدوة الأخلاقية فى مجتمعاتهم (٤٨) .

أما المنشقون على الكنيسة الإنجليكانية - من معمدانيين ومشيخيين ومستقلين (بيورتان) - فقد تمتعوا بالتسامح الدينى ماداموا متمسكين بمسيحية التثليث ؛ ولكن حظر شغل الوظائف السياسية أو الحربية ، أو الالتحاق بجامعة أكسفورد أو كبريدج ، على من لايعترف بالكنيسة الإنجليكانية وموادها التسع والثلاثين . واستمر انتشار المشودية بين الطبقات الدنيا . وفى ١٧٨٤ فصمت هذه الكنيسة عراها الواهية مع الكنيسة الرسمية . ولكنها كانت أثناء ذلك قد بثت « الحركة الإنجيلية » فى قلة من رجال الدين الانجليكان ، الذين أعجبوا بزعيمها وسلى ، ووافقوه على أن الإنجيل ينبغى أن يبشر به بالضبط كما سلم إلينا فى العهد الجديد ، دون تنازلات للنقد العقلانى أو النصى .

وظل تذكر إنجلتره لمؤامرة البارود والثورة الكبرى ، وحكم جيمس الثانى . يبقى فى سجلات الدولة على تلك القوانين القديمة التى شرعت ضد اتباع كنيسة روما الكاثوليكية . ولم يعد أكثر هذه القوانين يطبق ، ولكن

معوقات كثيرة ظلت مفروضة على الكاثوليك . فهم مثلاً لا يستطيعون شراء أو وراثة أرض شرعياً إلا بالتحايل القانوني ويدفع ضريبة مضاعفة على أملاكهم . وقد حظرت عليهم الخدمة في الجيش والبحرية ، واحتراف المحاماه ، والتصويت أو الترشيح للبرلمان ، وجميع المناصب الحكومية . ومع ذلك كان عددهم في ازدياد . وفي ١٧٨٦ كان منهم سبعة من كبار النبلاء ، واثنان وعشرون بارونيتاً و ١٥٠ « جنتلماناً » . وكان يحتفل بترتيل القديس في البيوت الخاصة ، ولم يسجل غير حالتين أو ثلاث من حالات الاعتقال عقاباً على هذه الجريمة طوال الستين عاماً التي حكمها جورج الثالث .

وفي ١٧٧٨ قدم السير جورج سافيل للبرلمان مشروع قانون هدفه « التخفيف عن الكاثوليك » فهو يبيح شراء الكاثوليك للأرض ووراثتهم لها ، والتطوع في القوات المسلحة دون التخلي عن مذهبهم . وأجيز المشروع ، ولم يلق معارضة تذكر من الأساقفة الإنجليكان في مجلس اللوردات . ولم يكن ينطبق إلا على إنجلترا ، ولكن في ١٧٧٩ - اقترح اللورد نورث تطبيقه على اسكتلنده . فلما باغ نبأ هذا الاقتراح اقليم السهول الاسكتلندية ، اندلعت الفتن في إدنبره وجلاسجو (يناير ١٧٧٩) ، وأحرقت عدة بيوت يسكنها الكاثوليك وسويت بالأرض ، ونهبت وحطمت حوانيت التجار الكاثوليك ، كذلك هوجمت بيوت البروتستنت الذين أعربوا عن عطفهم على الكاثوليك - مثل المؤرخ روبرتسن - ولم يخمد أوار الفتنة إلا حين أذاع قضاة إدنبره أن قانون التخفيف عن الكاثوليك لن يطبق على اسكتلنده .

ثم تبنى عضو اسكتلندي في البرلمان يدعى اللورد جورج جوردن قضية « لا بابوية في إنجلترا » في ٢٩ مايو ١٧٨٠ رأس اجتماعاً له « جمعية البروتستنت » التي خططت لمسيرة جماهيرية لتقديم ملتمس بإلغاء قانون التخفيف الصادر في ١٧٧٨ . وفي ٢ يونيو أحاط ستون ألف رجل يرتدون أشرطة زرقاء معقودة بقبعاتهم بمبنى البرلمان واعتدى على كثير من الأعضاء وهم في طريقهم إلى المبنى ، وحطمت مركبات اللوردات ما نسفيلاند وثيرلو ، وستورمونت ، ووصل بعض اللوردات النبلاء إلى كراسيهم بغير باروكاتهم

شعناً يرتعدون خوفاً (٤٩) . ودخل جوردن وثمانية من أتباعه مجلس العموم ،
وقدموا ملتمساً ، قبل إنه يحمل ١٢٠,٠٠٠ توقيع ، يدعو لإلغاء القانون ،
ويطالب بإجراء عاجل هو البديل الوحيد لغزو الغوغاء للمجلس . فقاوم
الأعضاء ، وأرسلوا في طلب الجند لكبح جماح الغوغاء ، وغلقوا جميع
الأبواب ، وأعلن قريب لجوردن أنه قاتله في اللحظة التي يقتحم فيها القاعة
دخيل ، ثم وافق المجلس على رفع الجلسة حتى ٦ يونيو . ووصل الجند
وأفسحوا طريقاً للأعضاء ليعودوا إلى بيوتهم . وأتلفت محتويات كنيستين
كاثوليكيتين تخصان قساوسة سردينيين وبقارين ، وكوم اثنتاهما في نار
أشعلت في الشوارع . ثم تفرق الجمع ، ولكن في ٥ يونيو نهب القائمون
بالشغب كنائس أجنبية أخرى وأحرقوا عدة بيوت خاصة .

وفي ٦ يونيو عماد الغوغاء إلى التجمع ، واقتحموا سجن نيوجيت ،
وأطلقوا سراح السجناء ، واستولوا على ترسانة سلاح ، وساروا وهم
مسهحون مخترقين شوارع العاصمة . وتحصن النبلاء بمتاريس في بيوتهم . وهنا
هوراس ولبول نفسه على حمايته دوقة في « قاعته » بميدان باركلي (٥٠) . وفي
٧ يونيو نهب وأحرق المزيد من البيوت ، واقتحم الرعاع معامل تطهير
الحمور ، وأطفأوا ظمأهم بخير قيود ، واسترق نفر منهم وهم رقاد سكارى
في الأبنية المحترقة . ورفض قضاة لندن المخول لهم ومحدتهم السلطة القانونية
على الحرس البلدي أن يأمرهم بإطلاق النار على الجمع . واستنفر جورج
الثالث مايشيا المواطنين ، وأمرهم بإطلاق النار كلما استعمل الرعاع العنف
أو هددوا باستعماله . وظفر عضو البلدية جون ولكس بالعفو من الملك ،
وفقد شعبيته لدى الجماهير ، إذ امتطى جواداً وانضم إلى الميليشيا في محاولة تفريق
الجمع . فلما هاجم المشاغبون الميليشيا أطلقوا عليهم الرصاص فقتلوا منهم
اثنين وعشرين ، ولاذ الباقون بالفرار .

وفي ٩ يونيو اندلعت الفتنة من جديد ونهبت البيوت وأحرقت - سواء
الكاثوليكية أو البروتستانتية ، ومنع جنود الإطفاء من إخماد النيران (٥١) .
وأخذ الجند الفتنة بعد أن قتل فيها ٢٨٥ رجلاً وجرح ١٧٣ ؛ وقبض على

١٣٥ من المشاغبين ، وشنق واحد وعشرون . وقبض على جوردن وهو يفر إلى اسكتلنده ، وأثبت أنه لم يكن له ضلع في حوادث الشغب ، فأفرج عنه ، وحصل برك على موافقة مجلس العموم على إعادة تأكيد قانون التخفيف عن الكاثوليك في انجلترا . ووسع قانون صادر في ١٧٩١ التسامح الشرعي في شئون العبادة والتعليم الكاثوليكين ، ولكن الكنائس الكاثوليكية حظرت عليها أن يكون لها برج أو جرس (٥٢) .

٤ - بلاكستون وبنتام والقانون

زعم فقيه ضليع أن « نشر كتاب بلاكستون « التعليقات » يعد من بعض الوجوه أبرز حدث في تاريخ القانون » (٥٣) وهذا رأى فيه تحيز للوطن ، ولكنه يعيننا على بيان مبلغ الرهبة والإجلال اللذين كان الطلاب المتحدثون بالإنجليزية ، حتى عصرنا هذا ، يتناولونهما كتاب « تعليقات على قوانين انجلترا » الذي نشره وليم بلاكستون في أربعة مجلدات وألفي صفحة في ١٧٦٥ - ٦٩ . وقد اثنى عليه القراء رغم حجمه هذا أو بسببه ، أثراً جليلاً من آثار العلم والحكمة ، فكان كل لورد يقتنيه في مكتبته ، وأحبه جورج الثالث حباً جماً بوصفه تمجيداً للملوك .

أما بلاكستون هذا فكان ابن تاجر لندي أتاح له ثراؤه أن يعلم ابنه في أكسفورد ثم يرسله إلى « المدل تمبل » ليمارس المحاماه - وقد ردت محاضراته في أكسفورد (١٧٥٣ - ٦٣) تناقضات القوانين وسخافاتهما إلى شيء من النظام والمنطق ، ثم بسطت النتيجة بوضوح وتشويق . وفي ١٧٦١ أنتخب عضواً في البرلمان ، وفي ١٧٦٣ عين محامياً عاماً للماكة شارلوت ، وفي ١٧٧٠ بدأ خدمته قاضياً في محكمة الدعاوى العامة . وإذ كان مدمناً للدرس كارهاً للحركة ، فقد أصابه تحلل هادئ تدريجي ولكنه سابق لأوانه ، ومات في ١٧٨٠ بالغا السابعة والخمسين .

وكان لرائعته الكبرى فضائل محاضراته : الترتيب المنطقي ، والعرض الناصع ، والأسلوب الرشيق . وقد امتدحه خصمه اللدود جريمي بنتام ،

لأنه الرجل الذي « علم القضاء أن يتكلم لغة المدارس والجنّلمان ، وهذب ذلك العلم العصبي ، ونفض عنه غبار المنصب ونسيج العناكب »^(٥٤) . وقد عرف بلاكستون القانون بأنه « قاعدة للعمل يملها كائن أعلى »^(٥٥) ، وكان يدين بتصوير مثالي مستقر للقانون ، يراه مؤدياً في مجتمع ما الوظيفة التي تؤديها قوانين الطبيعة في العالم ؛ وكان ميالاً إلى التفكير في قوانين إنجلترا على أنها تضارع قوانين الجاذبية في جلالها وخلودها .

وقد أحب إنجلترا والمسيحية على الصورة التي وجدها عليها ، وما كان ليسلم بأي عيب في واحدة منهما . وكان أكثر سنية من الأسقف واربرتن ، وأكثر ملكية من جورج الثالث . « ليس ملك إنجلترا أكبر قاض للأمة فحسب ، بل هو بالضبط القاضي الوحيد لها ، الذي له أن يرفض أي مشروعات قوانين ، ويبرم أي معاهدات ، . . . ويعفو عن أي جرائم شاء ، إلا إذا كان الدستور قد نص بصراحة أو بحكم النتيجة المنطقية الواضحة على استثناء أو قيد ما »^(٥٦) ووضع بلاكستون الملك فوق البرلمان وفوق القانون . فليس الملك « غير قادر على ارتكاب الخطأ فحسب ، بل حتى على التفكير الخطأ » - وهي عبارة عنى بها بلاكستون أنه ليس هناك قانون فوق الملك يمكن أن يدان به الملك . ولكنه أبهج كبرياء إنجلترا بأسرها حين عرف « الحقوق المطلقة لكل إنجليزي : حق الأمن الشخصي ، وحق الحرية الشخصية ، وحق الملكية الشخصية »^(٥٧) .

وقد سر جيل بلاكستون سروراً عظيماً بتصوره القانون الإنجليزي نظاماً صالحاً على الدوام لأنه في النهاية مبني على الكتاب المقدس بوصفه كلمة الله ، ولكن هذا التصور ثبت تطوير القضاء الإنجليزي وإصلاح قانون العقوبات والسجون ؛ غير أن من مفاخره أنه امتدح جهود هوارد التي بذلها لتحسين الأحوال في السجون البريطانية^(٥٨) .

وقد فهم هوارد المسيحية لا على أنها نظام قانوني بل نداء للقلب . ذلك أن الأحوال في السجن المحلي أفرغته حين عين مأموراً في بدفورد (١٧٧٣) فالأمور ومساعدوه لا رواتب لهم ، ورزقهم على ما يقتضون من السجناء

من رسوم ؛ فكان السجنين إذا قضى مدة عقوبته لا يفرج عنه إلا بعد أن يدفع جميع الرسوم المطلوبة منه ، وكان الكثيرون يظلون رهن السجن شهوراً بعد أن تتبين للمحكمة براءتهم . وقد وجد هوارد في رحلاته من مقاطعة إلى مقاطعة مظالم مماثلة أو أسوأ . فكان المدينون الذين يقصرون في الوفاء بدينهم ، والمدينون لأول مرة ، يلقون معاً في مكان واحد مع مدمني الجريمة . وكان أكثر السجناء يوثقون بالأغلال التي تثقل أو تخفف حسب الرسم الذي يدفعونه . وكانت جرایة السجنين في اليوم خبزاً ثمنه بنس أو بنسان ، فإذا أراد مزيداً من الطعام فعليه أن يدفع ثمنه أو يعتمد فيه على الأقرباء أو الأصدقاء . أما الماء فجرايته للسجين ثلاثة بنسات في اليوم للشرب والاختسال . ولا يزود السجناء بوسائل للتدفئة في الشتاء ، أما في الصيف فتهدية لا تذكر . وكان النتن الذي يفوح من هذه الزنانات من الشدة بحيث ظل لاصقاً بشباب هوارد بعد خروجه منها بزمان . وكانت « حمى السجنون » وغيرها من الأمراض تفتك بالكثير من السجناء ، وكان البعض يموت بالجوع البطيء^(٥٩) . وفي سجن نيوجتيت باندين كان خمسة عشر إلى عشرين سجيناً ينزلون حجارة طولها ثلاثة عشر وعرضها خمسة وعشرون قدماً .

وفي ١٧٧٤ قدم هوارد للبرلمان تقريره عن خمسين سجيناً زارها ، ووافق مجلس العموم على قانون يشترط الإصلاحات الصحية في السجنون ، وتوفير الرواتب للسجانين ، والإفراج عن جميع السجناء الذين لم تجد هيئة المحلفين الكبرى شكواوى مقدمة للمحكمة ضدهم . وفي ١٧٧٥ - ٧٦ زار هوارد سجون القارة ، فوجد سجون هولنده خيراً تجهيزاً وترفقاً نسبياً بالسجناء ، ومن أسوأها سجون هانوفر التي يحكمها جورج الثالث . وقد أيقظ ضمير الأمة من سباته نشر كتاب هوارد « حالة السجنون في انجلترا وويلز . . . ووصف لبعض السجنون الأجنبية » (١٧٧٧) . فوافق البرلمان على تخصيص صندوق لـ « مؤسستين إصلاحيتين » تبذل فيهما محاولة لإصلاح السجناء بالمعاملة الفردية والعمل الخاضع للملاحظة ، والتعليم الديني . واستأنف هوارد رحلاته ، وروى نتائجها في طبقات جديدة من كتابه . وفي ١٧٨٩ جاب أنحاء روسيا ، وفي خرسون أصيب بحمى المعسكرات

ومات (١٧٩٠) . ولم تثمر جهوده للإصلاح إلا نتائج متواضعة . فقانون ١٧٧٤ أهمله معظم السجناء والقضاة . ولم تظهر أوصاف سجون لندن في ١٨٠٤ و ١٨١٧ أي تحسين منذ عصر هوارد ، « لعل الأحوال أصبحت أسوأ لا أحسن »^(٦٠) ، وكان على الإصلاح أن ينتظر . ووصف دكنز لسجن نيو مارشالسيا في قصته « دوريت الصغيرة » (١٨٥٥) .

أما جرمي بنتام فإن جهوده المتنوعة لإصلاح القانون والحكومة والتعليم بذل أكثرها بعد هذه الفترة ، ولكن كتيبه « مقال صغير عن الحكومة » (١٧٧٦) مكانه هنا ، لأنه في المقام الأول نقد لبلاكستون . فقد احتقر عبادة الفقيه للتقاليد الموروثة ، وذكر أن « مارسخ الآن كأي يومياً بدعة »^(٦١) ، ونزعة المحافظين الحاضرة إنما هي تبجيل للراديكالية الماضية ؛ إذن فالذين يدعون إلى الإصلاحات لا يمتثلون وطنية عن أولئك الذين يرتعدون فرقا لفكرة التغيير . « في ظل حكومة القوانين ما هو شعار المواطن الصالح ؟ أن يطيع في دقة وأن ينفذ في حرية »^(٦٢) . وقد رفض بنتام رأى بلاكستون في السيادة الملكية ؛ فالحكومة الصالحة توزع السلطات ، وتشجع كلا منها على كبح شطط غيرها ، وتسمح بحرية الصحافة ، والتجمع والمعارضة السلميتين . والثورة في نهاية المطاف قد تحدث للدولة ضرراً أقل مما يحدثه الخنوع المبلد للطلغيان^(٦٣) . وقد نشر هذا الكتيب سنة الإعلان الأمريكي للاستقلال .

وقد شرح بنتام في هذا المقال ذاته « مبدأ السعادة الأعظم » الذي أطلق عليه جون ستيوارت مل في ١٨٦٣ اسم « مذهب المنفعة » . « أن أعظم سعادة لأكبر عدد هو مقياس الحق والباطل »^(٦٤) ، وينبغي الحكم على جميع المقترحات والممارسات الأخلاقية والسياسية بمقتضى « مبدأ المنفعة » هذا ، لأن « وظيفة الحكومة أن تزيد من سعادة المجتمع »^(٦٥) . وقد اقتبس بنتام « مبدأ السعادة » هذا من هلفتيوس ، وهيوم ، وبريستلي ، وبكاريا ،^(٦٦) وتكونت وجهة نظره العامة من تراعاته لجماعة الفلاسفة^(٦٧) .

وفي ١٧٨٠ ألف كتاب « مقدمة لمبادئ الأخلاق والتشريع » الذي نشره في ١٧٨٩ ، وضمه عرضاً لأفكاره أكثر تفصيلاً وفلسفة . وقد رد

كل فعل واع إلى الرغبة في اللذة أو الخوف من الألم ، وعرف السعادة بأنها « الاستمتاع باللذة ، والأمان من الألم »^(٦٨). ولاح أن هذا يبرر الأنانية المطلقة ، غير أن بنتام طبق مبدأ السعادة على الأفراد كما طبقه على الدول . فهل أفضى فعل الفرد إلى أعظم قدر من السعادة له ؟ في رأيه أن الفرد في المدى البعيد ينال أعظم لذة أو أقل ألم بتوحيه الإنصاف مع اخوانه البشر .

وقد مارس بنتام ما بشر به ، لأنه كرس حياته لسلسلة طويلة من مقترحات الإصلاح : التصويت العام للذكور البالغين المتعلمين ، والاقتراع السري ، والبرلمانات السنوية ، وحرية التجارة ، والنظافة الصحية العامة ، وتحسين أحوال السجون ، وتطهير القضاء ، وإلغاء مجلس اللوردات ، وتحديث القانون وجمعه وتنسيقه في لغة مفهومة لغير القانونيين ، وتوسيع القانون الدولي (وبنتام هو مخترع هذا المصطلح)^(٦٩) . وقد خرج إلى النور الكثير من هذه الإصلاحات في القرن التاسع عشر ، وأكثر الفضل في ذلك لمجهود « اتباع مذهب المنفعة » و « الراديكاليين الفلاسفة » من أمثال جيمس وجون ستيوارت مل ، وديفيد ريكاردو ، وجورج جروت .

كان بنتام آخر صوت من أصوات حركة التنوير ، والمعبر بين فكر القرن الثامن عشر المحرر وإصلاحات القرن التاسع عشر . ولقد وثق بالعقل ثقة أكثر حتى من ثقة جماعة الفلاسفة به ، وظل عزباً لآخر حياته مع أنه كان أحب الرجال وأطفهم . وحين مات (٦ يونيو ١٨٣٢) وهو في الرابع والثمانين أوصى بأن تشرح جثته في حضرة أصدقائه . فشرحت ، وما زال هيكله محفوظاً في الكلية الجامعية بلندن ، مرتدياً ثياب بنتام المؤلف^(٧٠) . وغداة موته وقع الملك « قانون الإصلاح » التاريخي الذي جسد الكثير من مقترحاته .

٥ - المسرح

(١) التمثيل

كان هذا النصف الثاني من القرن الثامن عشر غنياً في المسرح فقيراً في الدراما . فقد شهد لفيفاً من أروع الممثلين في التاريخ ، ولكنه لم ينجب غير

كاتبين مسرحيين اثنين أفلتت أعمالهما من منجل الحاصد : شريدان الذي ودعناه منذ هنيهة ، وجولد سمث الذي سيختص بركن تحت سماء الأدب . وربما كان هذا القحط في التمثيليات الجادة سبباً ونتيجة للإحياء الشكسبيرى الذى استمر حتى نهاية القرن .

وقد عانى الكتاب المسرحيون من أذواق النظارة . فقد كان هناك نقاش كثير للتقنية والفن التمثيليين ، ونقاش قليل للتقنية والفن التأليفيين . وكان أجر المؤلف ، وهو فى الغالب مكافأته المادية الوحيد ، حصيلة الحفلة الثالثة ، وإن كان هناك حفلة ثالثة . على أن بعض الممثلين والممثلات أثروا ثراء رؤساء الوزارة . وكان فى استطاعة الهتافين المأجورين أن يقضوا على أى مسرحية جيدة بافتعالهم الضوضاء المعادية ، أو أن يجعلوا المسرحية الحقيرة تنجح نجاحاً مشيراً . ولم يظفر بعروض تمتد عشرين ليلة فى موسم واحد إلا أكثر المسرحيات حظاً . وكانت الحفلات تبدأ فى السادسة أو السادسة والنصف ، وتحتوى عادة على مسرحية من ثلاث ساعات ، وتمثيلية هزلية ساخرة « فارص » أو إيمائية « بانتومايم » . أما المقاعد فتكلف من شلن إلى خمسة ، ولا حجز إلا بإرسال خادم يشتري التذكرة ويشغل المقعد حتى يحضر السيد أو السيدة . وكانت كل المقاعد بنوكا بغير ظهور^(٧١) ، وكان بعض النظارة المقربين يجلسون على خشبة المسرح حتى أنهى جاريلك هذا العبث المنكر (١٧٦٤) . أما الإضاءة فكلها بالشموع فى ثريات « تظل مضاعة طوال البرنامج . وكانت الملابس قبل عام ١٧٨٢ هى ملابس القرن الثامن عشر الإنجليزية دون اعتبار لزمان المسرحية أو مكانها . فكان كاتو ، وقيصر ، ولير ، يبدون فى سراويل للركبة وشعور مستعارة .

وازدهر المسرح ، سواء فى لندن أو فى « الأقاليم » ، رغم معارضة رجال الدين ومنافسة الأوبرا والسرك . وكانت بات وبرستل ولفربول وبتنجهام وما نشستر وبرمنجهام ويورك وإدنبره ودبلن تملك مسارح جيدة ؛ وكان لبعضها فرقها الخاصة ، وإذ كانت الفرق الكبرى تجوب البلاد ، فإن كل مدينة تقريباً شهدت التمثيل الجيد . وقد أثارت لندن المنافسة الحادة بين مسرحين رئيسيين . فى ١٧٥٠ مثل : كلاهما « روميو وجوليت » كل

ليلة في ذات الأسبوعين ، وأدى الأدوار الرئيسية سيرانجو باري وسوزانا كبر في مسرح كوفنت جاردن ، وجاريك ومس بيلامي في مسرح دورى لين . ثم كان لصموئيل فوت مسرحه الصغير في هاماركت ، حيث تخصص في التقليد المهجاء ، وكانت تقايداته لجاريك شقاء طال أمده في حياة ديفيد .

ولم تشهد خشبة المسرح الانجيزى قط من قبل هذا العدد الغفير من الممثلين الأفاضل . وقد استهل تشارلز ماكلين هذا العصر المجيد في ١٧٤١ بإخراجه تمثيليات شيكسبير ؛ وكان أول ممثل قدم شيلوك شخصية جادة وإن ظل وغداً لا يرحم (ولم يمثل شيلوك بشيء من العطف حتى جاء هنرى إرفنج) . ثم اختتم جون فليب كبل هذا الإحياء الشكسبيرى الذى استغرق قرناً كاملاً . وكانت أعظم ساعات تجليه حين مثل هو وأخته ساره مسرحية مكبث على مسرح دورى لين في ١٧٨٥ .

وإزدانت خشبة المسرح الآن بنفر من الممثلات الجديرات بالذكر . منهن بيج وفنتن التى وهبت الجمال المثير فى قوامها وطلعتها ، ولكنها عاشت عيشة منحلة ، وأصابها النقطعة فى منتصف التمثيلية (١٧٥٧) روات قبل أوانها غير متجاوزة السادسة والأربعين (١٧٦٠) . ثم كتى كلايف التى ظلت تمثل مع فرقة جاريك اثنتين وعشرين سنة ، وقد أدهشت لندن بأخلاقها التى كانت مضرب المثل ، وبعد أن هجرت خشبة المسرح (١٧٦٩) عاشت ست عشرة سنة فى بيت أعطاها إياه هوراس ولبول فى تويكنام . أما مسز هانا برتشارد فكانت تحتل مكان الصدارة بين الممثلات التراجيديات قبل أن تهبها مسز سيدونز فى أداء دور الليدى مكبث ؛ وقد أفنت عمرها فى التمثيل ، ولم تقرأ كتاباً قط (فيما روى) ؛ وقد وصفها جونسن بأنها « باهاء مالهمة » (٧٢) ، ولكنها عمرت بعد الكثيرات من الحسان ، وظلت تمثل حتى قبل موتها ببضعة شهور . وتألقت مسز فرانسيس آبنجتن فى أدوار بياتريس وبورشيا ، وأوفيليا ، وديدمونه ، ولكن أشهر أدوارها كان دور الليدى تيزل فى مسرحية « مدرسة الفضائح » ، وقد اكتسبت مارى روبنسن اسمها الشعبى « برديتا » بفضل اجادتها تمثيل ذلك الدور فى « قصة الشتاء » ؛

وكانت خليعة لأمير ويلز وغيره من العشاق الأقل شأنًا ، وصورها رينولدز وجينزبرو ورومني .

أما ربة المسرح الواعية بقدرها فكانت ساره كمبل سيدونز . ولدت لممثل جوال في نخان هويلز (١٧٥٥) ، وتزوجت في الثامنة عشرة بالممثل وليم سيدونز ، ثم لمعت وهي في التاسعة عشرة في مسرحية أوتواي « فينيسيا المصونة » . ثم استخدمها جارليك بعد سنة ، ولكن النقاد حكموا بأن « قدراتها لا ترقى إلى مستوى المسرح اللندني » ، ونصحها هنري وودوارد الذي كان يمثل الأدوار الهزلية لجارليك بأن تعود إلى مسارح الريف فترة . ففعلت ، وظلت ست سنوات تمثل في البنادر . فلما أن دعيت ثانية إلى دروري لين عام ١٧٨٢ ، أدهشت كل إنسان بتطورها ممثلة . وكانت البادئة بارتداء زي العهد الذي تمثله في أدوارها . ولم يلبث جارليك أن فضّلها في تمثيل الأدوار الشكسبيرية ، وبهتت لندن من الجلال والأسى اللذين سميت بهما بدور الليدي مكبث . وقد اكتسبت حياتها الخاصة احترام وصدقة كبار معاصريها ، وكتب جونسن اسمه على هذب ثوبها في اللوحة التي صورها فيها رينولدز ربة للمأساة ، وقد وقع من نفسه « بالغ تواضعها وكياستها » حين زارته (٧٣) . وواصل اخوان وأخت لها واثنان من بنات اخوتها مشاركة أسرة كمبل في المسرح حتى ١٨٩٣ . وبفضلها وبفضل جارليك ارتفع مقام الممثلين الاجتماعى ، حتى في بلد كانجلترا جعل من الفوارق الطبقيّة روح الحكومة وأداتها .

(ب) جارليك

كل الذين عرفوا أخبار جونسن يذكرون أن ديفد جارليك ولد في لتشفيلد (١٧١٧) ، والتحق بمدرسة جونسن في ايديال (١٧٣٦) ، ورافقه في هجرتهمما التاريخية إلى لندن (١٧٣٧) . وإذا كان بصغر جونسن بسبع سنين ، فإنه لم يكسب قط صداقة جونسن الكاملة ، لأن أكبر الرجلين سنًا لم يستطع أن يغفر لديفيد كونه ممثلاً وغنياً .

فلما بلغ جارياك لندن انضم إلى أخيه في استيراد النبيذ وبيعه . واقتضاه هذا زيارات متكررة للمحانات ، وهناك التقى بالمثلين ، فاستهواه حديثهم ؛ وتبع بعضهم إلى ابسويتش حيث سمحوا له بلعب أدوار صغيرة . وتعلم فن التمثيل بسرعة فائقة حتى اضطلع بعد قليل بتمثيل الدور الرئيسي في « رتشرد الثالث » في مسرح غير مرخص بجودمانز فيلدز بالطرف الشرقى للندن . وقد استطاب ذلك الدور لأنه كان ضئيل الحجم مثل الملك الأحدب ، ولأنه استمتع بالموت على خشبة المسرح وقد لقي أداءه من حسن الاستقبال ما جعله يهجر تجارة الخمر ، الأمر الذى أنزى أقاربه فى لتشفيلد وأحزبهم . ولكن ولیم بت الأب ذهب وراء الكواليس لهنته . أما الكسندر بوب ، الذى كان صاحب عاهة مثل رتشرد ، فقد قال لمشاهد آخر ، « إن هذا الفتى لم يكن له نظير قط ، وإن يكون له منافس أبداً » (٧٤) . فهنا ممثل سكب كل جسمه وروحه فى الدور الذى يؤديه ؛ ممثل تقمص رتشرد الثالث بوجهه وصوته ويديه وهيكله المحطم وعقله الماكر وأهدافه الشريرة ؛ ممثل لا يكف عن لعب دوره حين يتكلم الآخرون ، وينساه بمشقة إذا ترك خشبة المسرح . وسرعان ما غدا حديث رواد مسارح لندن ، فذهب عليه القوم لمشاهدته ، وتعشى معه اللوردات ، وكتب توماس جراى يقول « فى جودمانز كفيلدز اثنا عشر دوقة كل ليلة » (٧٥) وأعلن آل جارياك يلتشفيلد فى زهو قرابة ديفد لهم .

ثم جرب بعد هذا دور لير (١١ مارس ١٧٤٢) ، ففشل ؛ فلقد كان فيه من نشاط الحركة ما منعه من تمثيل دور شيخ فى الثمانين ، ولم يكن قد اكتسب وقار الملوك . على أن الفشل هذبه وتبين أنه عظيم النفع له . فأقلع عن لعب الدور حيناً ، ودرس المسرحية ، ودرب نفسه على تعبيرات سخنة لير التعس ، ومشيته الهزيلة ، وبصره المضعف ، ونبراته الحادة الباكية . وفى ابريل عاود التجربة . ورأى النظارة أنه تغير تماماً ، فبكوا وهتفوا ، ذلك أن جارياك خلق دوراً آخر من الأدوار التى ستذكر الناس باسمه قرابة قرن من الزمان . وصفق الناس جميعاً لإاجونسن الذى انتقد التمثيل زاعماً أنه مجرد بانتومايم ، وهوراس ولبول الذى زعم أن فى تعبيرية جارياك غلوا ،

وجراى الذى أسف على الهبوط من الانضباط الكلاسيكى إلى الانفعالية
والعاطفية الرومانتيكيتين . وشكا الدارسون من أن جاريك لم يمثل نصاً
شكسبيرياً خالصاً بل طبعة مراجعة منقحة ، أحياناً بقلم جاريك نفسه ؛
فنصف أبيات رتشرد الثالث كما مثلها كتبه كولى كبر (٧٦) ، وآخر فصل في
« هاملت » كما مثله قد غير فيه وبدل ليقدّم خاتمة رقيقة للمأساة .

في ذلك الموسم (١٧٤١ - ٤٢) لعب جاريك ثمانية عشر دوراً -
وهو عمل جبار يدل على ماكات خارقة في التذكر والتركيز . وكان إذا
مثل امتلاء المسرح برواده ؛ فإذا لم يكن له دور خلا نصفه . وعانت المسارح
المرخصة من تناقص روادها . وأكره مسرح جودمانز فيالديز بتدابير من
وراء الستار على أن يغاق أبوابه . فوقع جاريك لموسم ١٧٤٢ - ٤٣ عقداً
مع مسرح درورى لين حين أسقط في يده بدون خشبة المسرح ؛ نظير
٥٠٠ جنيه - وكان راتباً قياسياً للممثل . ثم رحل إلى دبلن أثناء ذلك لموسم
الربيع . وكان هنالك قد استهوى أهل المدينة لتوه بأوراتوريو « المسيا »
(١٣ ابريل ١٧٤٢) ؛ فغزاها الآن جاريك وبيع وافنجتن بشكسبير . فلما
عاد إلى لندن أقام في معيشة واحدة ، واشترى جاريك خاتم الخطبة . ولكن
غاضباً منه شحه . وغازه منها إسرافها . فبدأ يسائل نفسه أى زوجة تراها
منبعثة من ماضى بيج المخلط . واحتفظ بالخاتم ، ثم افترقا (١٧٤٤) .

ولقد كان تمثيله في درورى لين استهلالاً لعهد جديد في الفن . كان
يبدل لكل دور يؤديه قصارى طاقته وحرصه المتواصل على أن تتوافق كل
حركة من حركات جسمه وكل نبرة من نبرات صوته مع شخصية الدور ،
ولقد بث الحيوية كلها في رعب مكبث وفزعه ، حتى ظل هذا الدور ،
أكثر من أى من أدواره الأخرى ، باقياً في ذاكرة الشعب . وأحل محل
الأسلوب الخطابي الذى جرى عليه قدامى التراجيدين كلاماً أكثر طبيعية .
وقد أحرز حساسية في تعبير الشخصية كانت تنغير مع أيسر تغيير في التفكير
أو المزاج في النص . قال جونسن ملاحظاً بعد سنوات ، « إن ديفيد يبدو أكثر
سناً مما هو بكثير . لأن وجهه كانت مبهمة بضعف منهمة أى رجل آخر ، فهو

لا يستقر أبداً» (٧٧) . ثم هناك تعدد قدراته ، فقد لعب الأدوار الكوميديّة تقريباً بكل العناية والكمال اللذين بذلتهما في لعب دور مكبث أو هملت أولير ،

وبعد أن قضى جاريك خمسة مواسم ممثلاً وقع (٩ ابريل ١٧٤٧) عقداً يقسم إدارة درورى لين بينه وبين جيمس ليسى : فيضطلع ليسى بالأعمال الإدارية ، ويختار جاريك التمثيليات والممثلين ويدير البروفات . وخلال فترة إدارته التي امتدت تسعة وعشرين عاماً أخرج خمساً وسبعين مسرحية مختلفة ، وكتب هو نفسه مسرحية (بمشاركة جورج كولمان) ، وراجع أربعاً وعشرين تمثيلية لشكسبير ، وألف عدداً كبيراً من المقدمات ، والحواشيم ، والفارصات ، وكتب للصحف مقالات غفلا من الإمضاء تدعم عمله وتشيد به . وكان يقدر المال ، وكيف اختياره للمسرحيات وفق أعظم قدر من السعادة لأعظم عدد من رواد المسرح . وقد أحب التصنيف كما لا بد أن يحبه الممثلون والكتاب ورتب الأدوار ليحظى بأكثره . وكان رأى ممثليه أنه مستبد بخيل ، وشكوا من أنه يغمطهم أجورهم بينما هو يثرى . ولقد أقر النظام والانضباط بين أفراد فيهم غيرة وإفراط في الحساسية ويشرف كل منهم على العبقرية أو يطيل التفكير فيها . وكانوا يندمرون ، ولكن أبهجهم أن يبقوا معه ، لأنه ما من فرقة أخرى أبلت هذا البلاء الحسن في التصدي لرياح الحظ وتقلبات الدوق .

وفي ١٧٤٩ تزوج جاريك إيفا ماريا فايجل ، وهي راقصة من فيينا قدمت إلى إنجلترا باسم « الأنسة فيوليت » وظفرت بالتصفيق والاستحسان الحار على أدائها في باليهات الأوبرا . وكانت كاثوليكية تقيّة ، وظلت كذلك ، وقد ابتسم جاريك لاعتقادها بقصة القديسة أورسولا والأحد عشر ألف عذراء (٧٨) ، ولكنه احترام إيمانها لأنها عاشت أمينة لناموسه الأخلاقي . ولقد فعلت الكثير لمحبتها ووفائها لتخفيف التوتر الذي تنطوي عليه حياة الممثل المدير . فأغدق ثراه عليها ، واصطحبها في سياحات بالقاهرة ، وابتاع لها بيتاً غالياً في قرية هامتن . وهناك ، وفي بيته اللندني على أدلني تراس ، كان يستضيف زائريه في بندخ ، وأسعد الكثير من اللوردات وكبار

الأجانب أن ينزلوا ضيوفاً عليه . وهناك كان يقصف ويمرح مع فاني بيرني ، وآوى هانا مور .

وفي ١٧٦٣ اعتزل التمثيل إلا في المناسبات الخاصة . قال « الآن سأقعد وأقرأ شكسبير » (٧٩) . وفي ١٧٦٨ اقترح ونخطط وأشرف على أول مهرجان لشكسبير في ستراتفورد - أن - ايفن . وواصل إدارته للدوري لين ، ولكنه وجد غضبات الممثلين وهشاجراتهم تزداد ضغطاً على أعصابه الشائخة . وعليه ففي مطلع عام ١٧٧٦ باع نصيبه في الشركة لرتشرد برنسلي شريدان ، وفي ٧ مارس أعلن أنه سيتقاعد بعد قليل . وظل ثلاثة أشهر بعد هذا الإعلان يقوم بتمثيل الوداع لأدواره الحبيبة ويحظى بسلسلة من الانتصارات لعل ممثلاً آخر لم يعرفها قط على امتداد التاريخ . وقد أثار رحيله عن خشبة المسرح من الحديث في لندن قدر ما أثارته الحرب مع أمريكا . وفي ١٠ يونيو ١٧٧٦ اختتم حياته المسرحية بإعانة مالية وهبها لصندوق الممثلين العجزة .

ومد له في الأجل ثلاث سنين آخر . ثم مات في ٢٠ يناير ١٧٧٩ بالغا الثانية والستين . وفي أول فبراير حمل جثمانه إلى كنيسة وستمنستر على أكتاف أفراد من أرفع نبلاء بريطانيا ، ووهري ركن الشعراء عند قدمي تمثال شكسبير .

٦ - لندن

بدأت لندن أول مرة لجونسن (١٧٣٧) في صورة ملؤها الاشمزاز الشديد الغيور على الفضيلة .

« الحققد هنا ياتمر مع السلب وسوء الحظ ، ويشور رعاع أحياناً ، ويشب حريق أحياناً ، وطغام أوباش يختبئون هنا .

ويجوس محام يلتمس فريسة ، وبيوت هاوية ترعد من فوقك ، وامرأة كافرة تغرقك حديثاً يزهدق روهك (٨٠) .

(•) الليدى مارى ورتلى مونتجيو ؟

هذه بالطبع كانت بعض جوانب لندن اختيرت وقوداً لغضب الشباب الذي لم يجد له مكاناً بعد .

ولكن جونسن وصف لندن بعد ذلك بثلاث سنوات بأنها « مدينة اشتهرت بالثراء والتجارة ووفرة الخيرات وبكل لون من ألوان الكياسة والأدب ، ولكنها تعج بأكوام القذارة التي لو رآها إنسان متوحش لأخذته الدهشة » (٨١) . ذلك أن السلطات البلدية في ذلك الحين كانت ترك مهمة تنظيف الشوارع للمواطن ، الذي أوصى بأن يحتفظ بالمظهر الأنيق للرصيف - أو التراب - أمام منزله . وفي ١٧٦٢ رتبّت قوانين وستمنستر للرصف تنظيف البلدية للشوارع ، وجمع القمامة ، ورصف الطرق الرئيسية وترميمها ، وإنشاء نظام للمجاري تحت الأرض . وسرعان ما نهجت أقسام أخرى من لندن هذا النهج . فكانت الطرقات المرتفعة تحمي المشاة ، والبالوعات تصرف مياه الشوارع . وشقت الشوارع الجديدة في خطوط مستقيمة ، وبُنيت البيوت بناء أصاب وأمن ، وأطلقت العاصمة الوقور رائحة الطف .

ونقلت المدينة من مصلحة عامة للحريق ، ولكن شركات التأمين احتفظت بفرق خاصة للإطفاء بالخرطوم ، لاحد من خسائرها . وكان تراب الفحم والصابأ أحياناً يتضافران ليلبدا المدينة بغطاء قائم صفيق يستحيل على المرء معه أن يميز صديقه من عدوه . فإذا انجالت السماء أشرقت بعض الشوارع الحوانيت الزاهية . وفي حي الستراوند كانت أكبر وأغنى المتاجر في أوربا تعرض وراء نوافذها منتجات نصف العالم . وغير بعيد منها قامت مئات الحوانيت التي تشغى بعشرات الحرف ، ثم انبثت هنا وهناك الفواخير ومصانع الزجاج ودكاكين الحدادين ومعامل الجعة . وأسهمت ضوضاء الصناعات والتجار ، والعربات والجياد ، والباعة الجائلين والمغنين في الطرقات ، في ضجيج الحياة وفي الإحساس بها . فإذا أراد المرء مكاناً أهدأ وهواء أنقى ففي وسعه أن يمشى الهويناً في حديقة سانت جيمس ، أو يتطلع إلى السيدات الفاتنات يطوحن تنانيرهن الفصففاضة ذات اليمن وذات الشمال ويعرضن أحذيتهم الحريرية في البلبل . وفي الصباح يستطيع المرء شراء الحليب الطازج من فتيات يحابن الأبقار على عشب الحديقة . وفي المساء قد

يجوس كبوزويل بحثاً عن فتاة من بنات الهوى أو ينتظر هبوط الليل الذى يستر كثرة من الأوزار . وأكثر بعداً ناحية الغرب يستطيع أن يركب جواداً أو عربة فى هايد بارك . ثم هناك منتجات اللهو الكبرى . فوكسهول بحشودها الزاهية ، وأفدنة حدائقها ومماشيها المشجرة ، ورائلاج بقاعتها الفسيحة المدرجة ، حيث عزف موتسارت وهو طفل فى الثامنة .

وكان للفقراء مشارب للجنة . وللطبقتين الوسطى والعايا أندية ، وللجميع حانات . فكان هناك حانة « البورزهد » و « المايتر » حيث كان يتعشى الخان الأكبر (جونسن) . وحانة الجلوب الحبيبة إلى قلب جواد سمث ، وحانة الشيطان التى رفعت عن نفر من مشاهير الرجال من (بن) جونسن إلى (صموئيل) جونسن . وكان هناك مكانان باسم « تيركسهد » (رأس التركى) أحدهما حانوت قهوة فى الستراندا ، والآخر حانة فى شارع جرارد . أصبحت مقرراً ل « النادى » . وكانت النساء يختلفن إلى الحانات كالرجال ، وبعضهن معروضات للبيع . وفى أندية كنادى هوايت أو نادى أملك (الذى أصبح نادى بروكس) كان سراة القوم يستطيعون الشراب ولعب القمار فى خلوة مع نفر مختار . ثم هناك المسارح بكل ما تتيحه منافساتها من إثارة وبعثه نجومها من تألق وبهاء .

وقامت المواخير على مقربة من المسارح . فشكا الوعاظ من أنه « إلى التمثيليات والفواصل الموسيقية المذكورة تختلف عادة أعداد غفيرة من سفلة القوم وعاطليهم وشذاذهم ، وبعد أن ينتهى التمثيل ينطلقون إلى بيوت الدعارة » (٨٢) . وكانت أكثر الطبقات التى فى طاقتها الاختلاف إلى الموسسات تتعامل معهن تعامل الزبائن الدائمين ، وتجمع على الأغضاء عن هذه العادة باعتبارها لا محيص عنها فى الحالة الراهنة لتطور الذكور . وكان هناك بعض الغوانى الملونات اللاتى اجتذبن الزبائن حتى من طبقة النبلاء . ويصف بوزويل اللورد بمبروك وقد أنهكت قواه بعد ليلة قضائها فى ماخور للسود (٨٣) .

واستمر وجود الأحياء الفقيرة المزدهمة ، ولم يكن أمراً غير عادى أن تعيش أسرة من أسر الطبقات الدنيا فى حجرة واحدة من حجرات المبنى .

وكان أفقر القوم يسكنون أقباء رطبة غير مدفأة ، أو عليات يتسرب الماء من أسطحها ؛ والبعض ينامون على أسرة في الجدران وفي مداخل البيوت أو تحت السقائف . قال جونسن للآنسة رينولدز إنه « وهو عائد إلى مسكنه نحو الساعة الأولى أو الثانية صباحاً كثيراً ما رأى أطفالاً فقراء ينامون على العتبات والأكشاك وأنه ألف أن يضع بنسات في أيديهم ليشتروا بها فطورهم » (٨٤) . وأخير قاض جونسن أن أكثر من عشرين لندنياً في الأسبوع يموتون جوعاً (٨٥) . وكانت الأوبئة تنفث في المدينة بين آن وآن . ومع ذلك ازداد سكانها من ٦٧٤,٠٠٠ عام ١٧٠٠ إلى ٩٠٠,٠٠٠ في ١٨٠٠ (٨٦) . ربما بسبب هجرة الفلاحين الذين لا يملكون أرضاً ، وبسبب نمو التجارة والصناعة .

وغص التيمز وأرصفته بالسفن التجارية وشحناتها . كتب معاصر يقول « إن سطح التيمز بأكمله يغطى بصغار السفن ، والصنادل ، والزوارق ، والمراكب الخفيفة ، الغادية الرائحة ، وتحت الكبارى الثلاثة غابة من الصواري تمتد أميالاً بطولها حتى ليخيل إليك أن سفن العالم كله قد احتشدت هنا » (٨٧) . وقد أضيف كبريان جديدان في هذه الفترة : بلاكفرايرز وباترسى . وقد رسم المصور كاناليتو الذي قدم إلى لندن من البندقية (١٧٤٧ و ١٧٥١) مناظر بهية للمدينة وللنهر ؛ وأتاحت النسخ المطبوعة من هذه المناظر للأوروبيين المتعلمين التعرف على نمو لندن التي أصبحت أهم ثغر في العالم المسيحي .

ولم يعرف التاريخ منذ أيام روما القديمة مدينة بلغت هذه المبلغ من الاتساع والثراء والتعقد (باستثناء القسطنطينية) . ففي قصر سانت جيمس الملك والملكة وحاشيتاهما . والبلاط ومراسمه ؛ وفي الكنائس الأساقفة السمان يتحتمون بعبارات منومة . والمصلون المتضعون يستريحون من عناء الواقع ويطلبون العون الإلهي . وفي البرلمان اللوردات وأعضاء مجلس العموم يمارسون لعبة السياسة وبيادقهم أرواح البشر ؛ وفي قصر العمدة يضع العمدة ومعاونوه ذو الهزة الرسمية اللوائح الخاصة بالكنائس والمواخير ، ويتساءلون عن السبيل إلى السيطرة على الوباء القادم أو شغب الغوغاء التالي ؛ وفي الشكنات الجنود يقامرون ويفسقون وينجسون الهواء ؛ وفي الحوانيت

الحياطون يقوسون ظهورهم ، والسباكون يستنشقون الرصاص ، والصاغة والساعاتيون والأساكفة والحلاقون والخارون يهرولون لتلبية مطالب السيدات والسادة ؛ وفي جراب ستريت أو فليت ستريت الكتاب المأجورون يتملقون زبائنهم ، ويستقطون الوزارات ، ويتحدون الملك ؛ وفي السجون رجال ونساء يموتون بالعدوى أو يرقون إلى جرائم أشد نكرا ؛ وفي المباني الحقيرة والأقباء قوم جبياع عاثرو الحظ مهزومون يستكثرون من أشباههم في شوق وبغير توقف .

ورغم هذا كله أحب جونسن وكاتب سيرته لندن . فقد أعجب بوزويل بـ « الحرية والنزوات . . . والشخصيات العجيبة ، وبما في دنيا التجارة واللهو من شدة الزحام والعجلة والصخب ، وبالعدد الغفير من الملاحى العامة ، والكنائس الرفيعة والأبنية الباذخة ، ورضى المرء وهو ينفذ ما يخلو له من خطط دون أن يعرفه أو يلحظه أحد » (١٨٨) - هذا الانغمار في الزحام انغماراً حامياً حاناً للشخصية المجهولة . أما جونسن الذى استطاب وعمى « التدفق الشديد لحديث لندن » فقد حسم الأمر بسطر واحد كان حجة في بابه « إذا مل إنسان لندن فقد مل الحياة » (١٨٩) .